الكتاب والسنة عقيدة ومنهجاً

تأليف

عبد الرحمن عبد الخالق

الكتاب والسنة عقيدة ومنهجاً

أولا – الكتاب والسنة عقيدة

١ – بُعث رسول الله ﷺ في عصر قد انطمست فيه معالم الايمان بالحق تبارك وتعالى :

أ – فالعرب يعتقدون بوجود الله ، وأنه خالق الكون ، ومنزل المطر ، ولكن هذا الإله في نظرهم لايستطيع إحياءهم بعد الموت ، وليست له غاية من خلق الناس غير هذه الدنيا التي خلقهم فيها ، فليس هناك قيامة ولا حساب ، ثم هو إله كملوك الأرض يتوصل اليه من أجل الرزق والمطر ، والنصر على الأعداء بكل حبيب عنده كالملائكة والصالحين .

ب – وأما النصارى فقد درس دينهم الحق ، ولم يبق عليه إلا أفراد قلائل ، وأما الكثرة الغالبة فقد اعتقدت أن عيسى هو الله أو ابن الله – تعالى ربنا عما يقولون – وجعلوا علماءهم ورهبانهم أرباباً ، ينفذون أقوالهم

في كل شيء، ولو خالف ذلك نصوص الكتاب عندهم، ورفعوا الصالحين منهم الى منزلة التقديس والتأليه .

ج — وأما اليهود فقد غالوا في تشبيه الله بخلقه ، ونسبوا اليه كل القبائح التي تنسب الى البشر من الكذب والبخل ، والغفلة ، وعدم العلم بالمستقبل .

د — وفي بلاد فارس والهند عاشت فلسفات كثيرة ، كل فلسفة تصور معبودها بصورة تروق في عقل قائلها :

— ففلسفة نادت بالهين للعالم : إله للنور وآخر للظلمة ، وزعمت صراعاً بينهما ، ودعت الناس الى مساعدة إله الخير والنور ، بإشعال النيران لينتصر الحق على الباطل .

و — وفلسفة نادت بخالق للكون ، يجب على الإنسان ان يجاهد نفسه بصنوف من المجاهدات حتى يفنى به ويلتحق به ، ولا تنسخ روحه مرةثانية بعد الموت إلى هذا العالم .

وفلسفة نادت بالوجود الكلي لذات واحدة ، تعددت وجوداتها بتعدد صفاتها ، ولهج الشعراء والكتاب من الفرس بحب هذه الذات التي تتراءى لهم في كل شيء ، وتظهر لهم في كل موجود .

هـ — وفي اليونان ظهرت فلسفات كثيرة نادى معظمها بخالق للكون سموه واجباً الوجود أو علة للعلل ، عنه نشأ العالم وصدر، ولكن هذهالفلسفة

وقفت حائرة عاجزة أمام الغاية والهدف الذي من أجله خلق هـــذا الخلق الكون ، والنهاية التي يسير اليها الناس .

٢ — وكل هـذه الفلسفات السابقة كانت محاولات بشرية لمعرفة الغيب ، وما وراء هذا العالم المشاهد ، وبديهي أن تنتهي هـــذه المحاولات البشرية بالاخفاق الذريع ، اذ لاسبيل للبشر الى معرفة الغيب الا الظن والحدس والتخمين ، أو الجن والشياطين .

٣ — بعث الله رسوله محمداً ﷺ ليرشد كل أولئك الحيارى الضالين الى ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى ، وليعلمهم الحكمة التي من أجلها خلقهم ، والغاية التي اليها يسيرون ، والمنهج والطريق الذي يحبه الله لعباده ويرضاه لهم .

٤ — وقدّم رسول الله ﷺ للناس الدليل الكامل على أنه رسول من الله تبارك وتعالى ، يأتيه الوحي من السماء ، فقال لهم : هـــذا كلام الله ، أقرؤه عليكم ، وإن لم تصدقوني فأتوا بسورة واحدة من مثله .

٥ — وكان على الرسول ﷺ أن يواجه كل هذا الركام من الأفكار والعقائد والمذاهب والفلسفات ، وأن يقيم الحجة والبرهان على فسادها جميعاً ، وصحة ما يدعو هو الناس إليـه ، وكانت المعركة عقائدية .

٦ — وتركزت هـذه الحرب حـــول أصلين اثنين يتفرع عنهما فروع كثيرة :

أ — فالأصل الأول هو توحيد الله وحده ، وهذا يعني أنه الإله الخالق

وحده ، المعبود وحده ، الذي لا يشاركه في صفاته وأفعاله أحد سبحانه وتعالى ، والذي يتصف بكل صفات الكمال والجمال والجلال ، وينتفي عنه أضداد ذلك .

ب – والأصل الثاني هو توحيد الطريق إليه ، فلا يحكم في شؤون الناس غيره ، ولا يتقرب اليه الا بما شرع هو سبحانه وتعالى ، وكان هذا هو معنى « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » فلا إله الا الله: الأصل الأول، ومحمد رسول الله : الأصل الثاني .

٧ – ولقد نوزع رسول الله ﷺ في هذين الأصلين :

أ – فأما المشركون من العرب فقالوا : (أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجاب)[١] وقالوا عن آلهتهم : (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى)[٢] وقالوا : (هؤلاء شفعاؤنا عند الله)[٣]

وكان رد الله تبارك وتعالى : (قل : لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا)[٤] ، (قل : لله الشفاعة جميعاً)[٥] .

وعن الأصل الثاني قال تعالى هادماً تشريعاتهم الباطلة في الحلال والحرام والتقرب : (أم شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟)[٦] .

ب و ج – وأما اليهود والنصارى فزعمت كل طائفة أن طريقها هو

---

(١) سورة ص : الآية ٥
(٢) سورة الزمر : الآية ٣
(٣) سورة يونس : الآية ١٨
(٤) سورة الأنبياء : الآية ٢٢
(٥) سورة الزمر : الآية ٤٤
(٦) سورة الشورى : الآية ٢١

الصواب ، وأن معبودها هو الحق ، وأن الجنة خالصة لهم من دون الناس ، فكان رد الله تبارك وتعالى : (قل : إن هدى الله هو الهدى)[1] ، (قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)[2] .

والقرآن كله بيان لجهاد الرسول ﷺ مع هـــذه الطوائف الثلاث في شأن هذين الأصلين .

٨ — وآمن بالرسول ﷺ رجال أخلصوا دينهم لله ، فأحبوه وآثروه على كل شيء ، وأحبوا رسوله ﷺ ، وافتدوه بأرواحهم وأنفسهم ، وبذلوا الجهد في متابعته وطاعته ، وفي تنزيه الله وتقديسه وعبادته ، وتحققوا بهذين الأصلين ؛ وقاموا بهما خير قيام حتى أثنى عليهم الحق سبحانه وتعالى في آيات كثيرة من كتابه . من ذلك قوله جل وعلا :

(محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، سيماهم في وجوههم من أثر السجود)[3] الآية ، فرضي عنهم سبحانه ورضوا عنه ، وعرفوه حق معرفته ، وقاموا بدينه خير قيام .

وأثنى عليهم رسوله ﷺ فقال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ،

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٢ (٢) سورة آل عمران : الآية ٣١

(٣) سورة الفتح : الآية ٢٩

ثم الذين يلونهم »[1] وشهد لأفراد منهم بالجنة والفضل ، وكان من هؤلاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، الذي قال عنه رسول الله ﷺ : « وزنت بالأمة فرجحت ، ووزن أبو بكر بالأمة - لست فيها - فرجح ، ووزن عمر بالأمة - لست فيها وأبو بكر - فرجح »[2]

وقال : « لو كان نبي بعدي لكان عمر »[3] وقال لبلال : « اني سمعت دَفّ نعليك بين يدي في الجنة »[4] ونحو ذلك كثير جداً

---

(١) رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود ، وغيرهم عن غيره .

(٢) رواه أحمد (٧٦/٢) بنحوه واسناده ضعيف ، فيه عبيد الله بن مروان أورده ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل - ٣٣٤/٥) ولم يحك فيه جرحا ولا تعديلا ، وذكره ابن حبان في الثقات، وفيه أيضاً أبوعائشة أورده صاحب (الجرح والتعديل - ١٧/٩ ٤) ولم يحك فيه كذلك جرحاً ولا تعديلا ، وعلى هذا فهما مجهولان وباقي رجاله ثقات . وروى أحمد (٤٤/٥ و ٥٠) وأبوداود (٤٦٣٤) والترمذي (٢٣٨٩ - تحفة) وصححه ، كلهم عن أبي بكرة أن أحد الصحابة رأى في منامه أن ميزاناً دلي من السماء ، فوزن به النبي (ص) وأبو بكر ، فرجح النبي (ص) ، ثم وزن به أبو بكر وعمر ، فرجح أبو بكر ، ثم وزن عمر وعثمان ، فرجح عمر ، ثم رفع الميزان . وقد قواه أستاذنا الألباني في (تخريج المشكاة - ٢٣٣/٣) بطريقيه.

(٣) رواه بنحوه أحمد (١٥٤/٤) والترمذي (٢٩٣/٢) وحسنه والحاكم (٨٥/٣) وصححه وغيرهم ، كلهم عن عقبة بن عامر مرفوعاً ، وحسنه أستاذنا الألباني في (السلسلة الصحيحة - ٣٢٧) وفي (صحيح الجامع - ٥١٦٠) .

(٤) رواه البخاري (٢٧٦/٣ - من الفتح) وأحمد (٣٣٣/٢ و ٤٣٩) عن أبي هريرة ، ولفظ البخاري : قال النبي (ص) لبلال عند صلاة الفجر : « يا بلال ، حدثني بأرجى عمل عملته في الاسلام ، فاني سمعت دف نعليك بين يدي في الجنة » قال: «ماعملت عملاً أرجى عندي أني لم أتطهر طهوراً في ساعة ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ماكتب لي أن أصلي» ودف النعل هو صوت حركتها الخفيف وسيرها اللين.

٩ – ومع ذلك فقد حرص رسول الله ﷺ طيلة حياته على بقاء أصلي التوحيد «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» نقيين صافيين، فما كان يسمح بتاتا بخدش هذين الأصلين، ولو من أحب الناس لديه، وآثرهم عنده ﷺ.

ومن الأدلة على ذلك:

أ – أنه رأى يوماً ما بيـــد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقة من التوراة، وكان عمر قد أعجبه ما فيها، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، وقال لعمر: «أهذا وأنا بين أظهركم، لقد جئتكم بها بيضاء نقية. والله لو كان موسى حيا لما وسعه إلا أن يتبعني»[1] وفي هذا الحديث من الفقه:

أولاً: ان الرسول ﷺ تعجب أن يبدأ الاهتداء بغير القرآن والسنة وهو مازال حياً. ومن مقتضى الإيمان بالكتاب والسنة ان يعتقد أن الهدى فيهما وحدهما.

وثانياً: أن الرسول ﷺ قد جاء بالدين نقياً خالصاً، لم تشبه شائبة من تغيـــير أو تبديل أو تحريف، والصحابة يتلقونه غضاً طرياً خالصاً،

(١) رواه بنحوه الامام أحمد في مسنده (٣/٣٨٧) والبيهقي في شعب الايمان، والدارمي (١/١١٥ – ١١٦) بأتم منه، قال أستاذنا الالباني في (تخريج المشكاة – ١/٦٣): «فيه مجالد بن سعيد، وفيه ضعف، ولكن الحديث حسن عندي لان له طرقاً كثيرة عند اللالكائي والهروي وغيرهما، وقد خرجت بعضها في (الارواء – ١٥٨٩)».

فكيف ينصرفون عنه ويهتدون بما شابه التحريف والتبديل، والزيادة والنقص.

وثالثاً : ان موسى عليه السلام نفسه الذي نزلت عليه التوراة لو أنه حي موجود لكان اللازم في حقه هو متابعة الرسول ﷺ ، وترك شريعته التي بلغها للناس

وهذا الحديث أصل في بيان منهج الكتاب والسنة، وأنه لا يجوز لأحد أن يهتدي بعلم يقرب إلى الله ، ويصلح النفس غير الذي بعث به رسول الله ﷺ حتى لو كان أصله من شريعة منزلة على أحد الانبياء السابقين .

ب - والدليل الثاني أن رسول الله ﷺ سمع خطيباً يخطب بين يديه فكان مما قال : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى » فقال له : رسول الله ﷺ : « بئس خطيب القوم أنت ، قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى »[1]

فهذا الخطيب قد قاطعه رسول الله ﷺ ، وقبّح قوله أمام الناس، والسبب أنه جمع بين الله ورسوله في ضمير واحد « ومن يعصهما » فأمره الرسول ﷺ بأن يعيد ذكر الاسم الظاهر لله ولرسوله ، حتى لا يُظن ولو من بعيد أن منزلة الرسول كمنزلة الله عز وجل وهذا الحرص من الرسول ﷺ دليل على وجوب صون جناب توحيد الله تبارك وتعالى صوناً كاملا ، ووجوب التفريق التام بين ما يجب لله عز وجل ، وما يجب لرسوله ﷺ .

---

(١) رواه مسلم (١٥٩/٦ - بشرح النووي) وأحمد (٢٥٦/٤ و ٣٧٩) .

ج - والدليل الثالث أن عثمان بن مظعون رضي الله عنه وكان من خيار الصحابة لما توفي ، وحضر عنده الرسول ﷺ سمع الصحابية الجليلة أم العلاء تقول : شهادتي عليك أبا السائب أن الله قد أكرمك . فرد الرسول ﷺ وسلم قائلا « وما يدريك أن الله قد أكرمه ؟ » وكان هـــذا تنبيها عظيما من الرسول ﷺ لهذه الصحابية بأنها قد حكمت بحكم غيبي ، وهذا لايجوز ، لأنه لا يطلع على الغيب إلا الله عز وجل ، ولكنها ردت قائلة : « سبحان الله يا رسول الله !! ومن يكرم الله إذا لم يكرمه ؟ » أي إذا لم يكن عثمان بن مظعون رضي الله عنه ممن يكرمهم الله تبارك وتعالى فمن بقي منا حتى يكرمه الله تبارك وتعالى ، وهذا رد في غاية البلاغة والفهم ، ولكن رسول الله ﷺ رد عليها بما هو أبلغ من ذلك حيث قال لها : « والله إني لرسول الله لا أدري ما يفعل بي غداً » وكان هذا غاية الأمر وحسمه ، فالرسول بنفسه وهو من هو صلوات الله وسلامه عليه يجب أن يظل خائفاً مترقباً (يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه) وهنا وصلت أم العلاء إلى الحقيقة الشرعية العظيمة فقالت : « والله لا أزكي بعده أحداً أبداً »[1] .

وهذا الأصل مقرر في الشريعة في آيات وأحاديث كثيرة ، منها قوله تبارك وتعالى : (ألم تر الذين يزكون أنفسهم ، بل الله يزكي من يشاء ، ولا يظلمون فتيلا ، انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً

---

(١) رواه البخاري (٣/٣٥٨ و ٦/٢٢٣ و ٢٢٤ و ٨/٢٦٦ و ٩/٦٠ و ٦٩ - من الفتح) وأحمد (٦/٤٣٦) عن أم العلاء الانصارية بنحوه .

مبيناً) [1] ومنها قوله تعالى : (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً) [2] وكان هذا رداً على اليهود الذين قالوا : نحن أهل الجنة ، ونحن شعبه المختار ، وردا على النصارى الذين قالوا : بل نحن أهل الجنة ، لأننا أتباع ابن الله المخلص للبشر من خطيئتهم ، ورداً أيضاً على المسلمين الذين قالوا : بل نحن أهل الجنة لأننا أتباع رسوله محمد خاتم الرسل والموحدين ، فأخبر تعالى أن الجنة ليست بالأماني، وإنما بالعمل الصالح ، وأن من عمل سوءاً يجز به ، ولا تنفعه نسبته

وروي [3] في الحديث : « من قال أنا في الجنة فهو في النار » .

د — والدليل الرابع أن رجلا جاء الى الرسول ﷺ فقال له : « ما شاء الله وشئت » فقال له ﷺ: « أجعلتني لله نداً ؟ قل ما شاء الله وحده » [4] ، فجعل ﷺ المشيئة لله وحده ، حتى يعلم المسلمين أن لا مشيئة

---

(١) سورة النساء : الآيتان ٤٩ و ٥٠ (٢) سورة النساء : الآية ١٢٣

(٣) فيه إشارة إلى ضعفه ، وقد أورده الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة ص ٤٢٣) ضمن الحديث على حديث : « من قال : أنا مؤمن فهو كافر ، ومن قال : أنا عالم فهو جاهل » وعزاه إلى (المعجم الصغير للطبراني عن يحيى بن أبي كثير) وقال : « وسنده ضعيف ، وهو عند الديلمي في مسنده عن جابر بسند ضعيف جداً، ورواه الحارث بن ابي أسامة من جهة قتادة عن عمر بن الخطاب موقوفا عليه ، وهو منقطع » .

(٤) رواه أحمد (١/٢١٤ و ٢٢٤ و ٢٨٣ و ٣٤٧) والبخاري في (الأدب المفرد — ٧٨٣) وغيرهما ، وأورده أستاذنا الالباني في(السلسلة الصحيحة — ١٣٨) وعزاه إلى مخرجيه ، وحسنه .

لأحد مع مشيئة الله تبارك وتعالى .

٩ — وأما الدليل الخامس فهو أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم مروا في أثناء خروجهم إلى هوازن بعد فتح مكة على شجرة ، كان المشركون يعلقون عليها سيوفهم ، ظانين أنه من فعل ذلك حالفه النصر في معاركه مع العدو ، فقالوا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . أي شجرة ينوطون بها أسلحتهم . فقال لهم الرسول ﷺ : « قلتم والذي نفسي بيده كما قال بنو إسرائيل لموسى : (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) »[١] فبين ﷺ أن هذا من عمل المشركين ، وأن مشابهتهم في هذا شرك بالله تبارك وتعالى ، إذ طلب البركة والنصر من غير الله عز وجل شرك به تعالى .

١٠ — والأدلة السابقة كلها لبيان أن الرسول ﷺ ما كان ليسمح بتاتاً بخدش الأصل الأصيل في الإسلام ، وهو توحيد الله عز وجل ، والقول عليه بلا علم . وأخذ الهداية من غيره سبحانه وتعالى ، وغير رسوله ﷺ .

١١ — وقد سدّ رسول الله صلوات الله وسلامه عليه باب العرافة والكهانة وادعاء علم الغيب ، وأخبر ﷺ أن مدعي ذلك كافر ، وأن من صدّق عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ ، وقد سئل ﷺ

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٥/٢١٨) والترمذي في (سننه — ٦/٤٠٧ و ٤٠٨ — تحفة) وقال : « حديث حسن صحيح » قلت : وإسناده صحيح كما قال ، ورجاله ثقات : رجال الستة غير سنان بن أبي سنان فلم يرو له أبو داود وابن ماجه .

عن العرافين فقال : « ليسوا بشيء » هكذا بنفي قيمتهم وتحقيرهم ، فقال له أصحابه رضوان الله عليهم : ولكنهم يخبروننا أحياناً بالأمر ، فيكون كما قالوا ! فأخبرهم الرسول ﷺ أن الشياطين تركب بعضها بعضاً وتصل إلى العنان ، وتسمع الملائكة تتكلم بالأمر من أمر الله تعالى ، فيتعلمونه منهم ، فيرسل الله عليهم الشهب ، فيلحقهم الشهاب أحياناً فيحرقهم ، وأحياناً يلقون الكلمة إلى من هو أسفل منهم قبل الشهاب ، فيكذب الشيطان مع هذه الكلمة مئة كذبة ، فلذلك يصدق أولياء الشياطين من الإنس مرة ، ولكنهم يكذبون كثيراً (٣) .

١٢ – ولما شك الصحابة في (ابن صياد اليهودي) الذي كان يسكن المدينة ، وظنوه الدجال الذي حدث عنه رسول الله ﷺ ، وأخذ الرسول معه جماعة وزاره في منزله قال له الرسول مختبراً : « لقد خبأت لك خبئاً . »

---

(١) رواه مسلم في (صحيحه ١٤/٢٢٥ – نووي) ولفظه : « قالت عائشة : سأل أناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكهان ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليسوا بشيء . قالوا : يا رسول الله ، فإنهم يحدثون أحيانا الشيء يكون حقاً؟ قال رسول الله صلى الله علية وسلم : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قر الدجاجة ، فيخلطون فيها أكثر من مئة كذبة » .

وأما صعود الشياطين إلى السماء لاستراق السمع ، وقذفهم بالشهب فقد ورد في حديث آخر رواه البخاري في عدة مواضع من صحيحه ، منها كتاب التفسير (٩/٥٢٤ – فتح) عن ابي هريرة ، وعزاه ابن كثير إلى ابي داود والترمذي وابن ماجه أيضاً . كما ورد مثله في حديث رواه مسلم في صحيحه (٧/٣٦ و٣٧ نووي) واحمد وغيرهما عن ابن عباس عن رجل من الأنصار .

وكان الرسول ﷺ قد أضمر في نفسه (سورة الدخان) فسأله الرسول عما في نفسه ، فقال عدو الله : « هو الدخ » ولم يستطع ان يكمل الكلمة ، فقال له رسول الله ﷺ : « اخسأ فلن تعدو قدرك » . أي لن تتعدى كونك كاهناً تتصل بالجن . ولذلك قال له رسول الله ﷺ « كيف ترى ؟ » قال : يأتيني أحياناً صادق وكاذب . أي تأتيه أخبار من الشيطان صادقة أحياناً ، وكاذبة أخرى ، فقال رسول الله : « لقد لُبِّس عليه »[1]

وفي هذا الحديث دليل على أن الشيطان من الممكن أن يطلع على ما في نفس المؤمن ، ويخبر وليه من الإنس ، وأننا مأمورون ألا نصدق من الغيب إلا ما أتانا من طريق الله ، ومن طريق رسوله ﷺ فقط .

وكل هذه الأدلة التي ذكرناها ، وغيرها لا يحصى ، إنما كانت لتثبت الجانب العقائدي الايماني في دعوة الرسول ﷺ ، وبيان أن العقيدة والايمان بالغيب مصدره الله تبارك وتعالى ، وأنه لا يجوز لمسلم بتاتاً أن يتخذ طريقاً آخر للغيب يتلقى عنه ، وأن من فعل ذلك فقد خرج من الايمان بالله تعالى .

---

(١) رواه بنحوه مطولا البخاري (٣/٦٢ ؛ و ٦/٥١٢ و ١٣/١٨٠ — من الفتح) ومسلم (١٨/٤٦ و ٥٨ — بشرح النووي) وغيرهما .

ثانياً : الكتاب والسنة منهجا

للتشريع ميادين كثيرة منها العبادات ، والمعاملات ، والسياسة وأمور المعاش والحياة ، وباب الاجتهاد مفتوح فيها جميعاً إلا العبادات فليس فيها اجتهاد ، فكل ما يتقرب به الى الله تبارك وتعالى من أعمال يجب الوقوف فيها عند الحد المشروع ، ولم يسمح الرسول ﷺ لأحد أن يزيد على ما قال فيها ، أو أن يبدل شيئاً منها ، وهاك بعض الأدلة التي تثبت هذا الأصل من أصول الايمان :

أ ـ رأى رسول الله ﷺ رجلاً يمشي في الحج بين رجلين يسندانه فقال ﷺ : « ما هذا ؟ » فقالوا : يا رسول الله نذر أن يحج ماشياً . فقال ﷺ : « إن الله عن تعذيب هذا نفسه لغني ! ! مروه فليركب »[1] فنهى ﷺ عن فعل لم يشرعه الله عز وجل ، وان كان فاعله قاصداً به التعبد والتقرب الى الله عز وجل .

ب ـ ورأى رسول الله ﷺ رجلاً آخر يجلس في الشمس فسأل عنه ،

---

(١) رواه بنحوه البخاري (٤/٤٥٠ و ٤٥١ ـ فتح) ومسلم (١١/١٠٢ و ١٠٣) وغيرهما عن أنس .

فقالوا : يارسول الله نذر أن يصوم ، ولا يتكلم ، ويجلس في الشمس فقال صلوات الله وسلامه عليه : « ليتم صومه ، وليتكلم وليجلس في الظل »[١]

فأقره رسول الله ﷺ على الصوم الشرعي فقط، ونهاه عن الصوم المبتدع وهو السكوت ، وإن كان مشروعاً في شريعة سابقة كما في قصة زكرياوقول مريم عليهما السلام: (إني نذرت للرحمن صوماًفلن أكلم اليوم إنسيا)[٢] ولكن الله عزوجل لم يتعبدنا بهذه الشريعة وأمره بأن يتحول الى الظل، لأن الجلوس في الشمس مع وجود الظل تكلف سخيف ، وخروج عن جادة الحق ، وعبادة لم يشرعها الله سبحانه وتعالى

ج – وأبلغ من الدليلين السابقين حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن أباه شكاه الى الرسول ﷺ بأنه زوّجه امرأة من أشراف العرب ، ومكث يسألها كل يوم : كيف رأيت زوجك ؟ فقالت : صالحاً غير أنه لم يطأ لنا فراشاً . وذلك لخمس عشرة ليلة ، فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص بلغني أنك تصوم النهار وتقوم الليل فقال : نعم يارسول الله . ثم قال له الرسول ﷺ : صم من كل شهر ثلاثة أيام فقال : يا رسول الله ! قال ﷺ : خمساً . قال : يارسول الله ! قال سبعاً . قال : يارسول الله ! قال : تسعاً . ثم قال له في النهاية : صم صيام أخي داود كان يصوم يوماً ،

---

(١) رواه بنحوه البخاري (١٢/٤٠١ و ٤٠٢) وابو داود (٣٣٠٠) وغيرهما عن ابن عباس .

(٢) سورة مريم : الآية ٢٦ .

ويفطر يوماً ولا يفر إذا لاقى » .[1]

وفي هذا الحديث من الفقه أن منهج الاسلام هو الاعتدال بين حاجات الانسان كلها فيعطي الانسان حق ربه ، ولا ينسى في سبيل ذلك حق زوجه ونفسه ، وعينه وقوته . ولذلك جاء في الحديث الصحيح : « إن لربك عليك حقاً ، ولزوجك عليك حقاً ، فأعط كل ذي حق حقه » [2]

وهنا لفظة في الحديث يجب ان نقف عندها طويلًا ، وهي أن المسلم لا يجوز أن يصوم صوماً يضعفه حتى إنه ليفر من العدو ، ولذلك قال الرسول لعبد الله : « فصم صيام داود كان يصوم يوماً ، ويفطر يوماً ، ولا يفر إذ لاقى » وهذه القوة البدنية للقاء العدو مطلوبة في الاسلام ؛ لأن الجهاد هو من أعلى مراتب الاسلام . فالذين يميتون قواهم بالتعبد ولو كان أصله مشروعاً، ويطغى هذا على جانب آخر من العبادة فإنهم مفرطون بهذا الفعل ، عاصون لله تبارك وتعالى من جهة أخرى .

د — وفي الحديث الصحيح الآخر أن رجلًا سأل رسول الله ﷺ عن صومه، فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، وجلس عمر بن الخطاب يقول :

---

(١) هذا الحديث مركب من روايتين رواهما مسلم في صحيحه (٨/٤٤ — ٤٧ نووي) بنحوه ، كما روى نحوه البخاري (٥/١٢٤ فتح) .

(٢) رواه البخاري(٥/١١٤فتح)في قصة سلمان وابي الدرداء ، وفيه انالمتكلم بهذا هو سلمان ، وقد صدق النبي (ص) كلامه هـذا . وفي قصة ابن عمرو الجملتان الأوليان منه مرفوعتين .

رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينـــا حتى سكن غضب النبي ﷺ [1] ، وسبب غضبه صلوات الله وسلامه عليه أن هذا السائل أراد أن يضاهي فعل الرسول في هذه العبادة التي كان له فيها خصوصية ، وهي أنه يواصل اليوم واليومين والثلاثة ، وكان يُسأل ﷺ عن ذلك فيقول : « لست كهيئتكم إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني » [2] .

هـ — وأبلغ هذه الأدلة كلها في مسألة التعبد والتقرب ، وأنه لا يجوز فيه إلا اتباع المشروع ، والتقيد بالكتاب والسنة هو حديث النفر الثلاثة الذين أتوا الى بيوت النبي ﷺ ، وسألوا عن عبادته ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقال أحدهم : وأين نحن من رسول الله ﷺ ! إن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . أما أنا فسأقوم ولا أنام وقال الآخر : أما أنا فسأصوم ولا أفطر ، وقال الثالث : أما أنا فلا أتزوج النساء . فلما رجع رسول الله ﷺ وأخبر خبرهم صعد المنبر ، وجمع الناس ثم قال : ما بال أقوام يقولون كذا كذا . أما إني أعلمكم بالله ، وأتقاكم لله أنا ، أما إني لأصـــوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » [3]

(١) رواه مسلم (٩/٤ ، ٥١) عن ابي قتادة الانصاري رضي الله عنه بنحوه مطولاً .

(٢) رواه مسلم (٢٠٢/٧ و ٢١٥) بنحوه عن ابي هريرة وعائشة وأنس رضي الله عنهم .

(٣) رواه البخاري ومسلم عن انس رضي الله عنه وليس فيه صعود المنبر وجمع الناس .

وفي هذا الحديث من الفقه شيء كثير ويهمنا الآن ما نحن بصدده ، وهو أن أي تجاوز فيما شرعه رسول الله ﷺ في العبادات التي يتقرب بها إلى الله عز وجل ، فمعنى ذلك الخروج من منهج الإسلام إلى منهج آخر حتى ولو صلحت النيات ، وأريد بذلك وجه الله عز وجل ، فإن الرب تبارك وتعالى لا يُعبد إلا بما شرع .

وأمر آخر وهو أن تجاوز فعل الرسول ﷺ ، سواء كان بتشريع جديد كالترهُّب ، أو الزيادة في المشـــروع كالصيام أبداً ، وقيام الليل كله هو اتهام للرسول ﷺ أنه لم يكن في القمة من معرفة الله تبارك وتعالى ، والقيام بحقه . ولذلك قال أولئك النفر : وأين نحن من رسول الله ﷺ ! ؟ إنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، يعنون أن الله قد غفر ذنوبه ، فليس بحتاج الى اجتهاد في العبادة ، ومعنى هذا أن الرسول قد ترك شيئاً من وسعه في العبادة استناداً إلى هذه المغفرة ، والحظوة عند الله تبارك وتعالى ، وهذا من الاعتقادات التي لا تليق في حق الرسول ﷺ الذي ما ترك وسعاً في عبادة الله وطاعته ، وكان ﷺ في القمة دائماً ، وفي المقدمة دائماً كما أمره بذلك ربنا سبحانه وتعالى حيث قال : (قل إن صلاتي ونسكي ، ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين)[1] فهو ﷺ أول المسلمين في كل شيء ، فلا يجوز لمسلم أن يظن فيه غير ذلك ، والزيادة على ما شرعه إنما هي اتهام له ﷺ ، ولذلك قال : « إن أعلمكم بالله ، وأتقاكم

(١) سورة الانعام : الآيتان ١٦٢ و ٦٣ .

لله أنا » ثم فاصل بين من أراد طريقه بالالتزام ، ومن لم يلتزم قال له « فمن رغب عن سنتي فليس مني »

١٦ – ولم يكتف الرسول ﷺ ببيان كل ذلك ، بل أعلن في كل خطبة من خطبه للناس : « وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار »[١] وقال أيضاً : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »(*) فكل عمل محدث يراد به التقرب إلى الله عز وجل فهو مردود على صاحبه ، والتعبد هو بالمشروع فقط .

١٧ – ولقد أصّل الرسول ﷺ بعد ذلك أصلا خطيراً ، وهو تعمد مخالفة أهل الكتاب والأمم الأخرى ، وذلك حتى تتحقق ميزة الأمة بالمنهج المستقل والأفعال المستقلة ، وحتى لا تختلط أفعال الأمة وعباداتها بأفعال الأمم الأخرى وعباداتها ، فأمر أن نصلي بالنعال والخفاف مع العلم أن خلعها أتم لمعاني الخضوع والذلة ، وذلك مخالفةً لليهود والنصارى الذين لا يصلون في خفافهم ونعالهم . فقال : « إن أهل الكتاب لا يصلون في خفافهم ونعالهم ، فصلوا في خفافكم ونعالكم »[٢] .

---

(١) هاتان الجملتان جزء من خطبة الحاجة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبدأ بها خطبه ، والجملة الاولى عند مسلم والبيهقي ، وهي والجملة الثانية عند النسائي ، واسناده صحيح ، وانظر رسالة (خطبة الحاجة) لاستاذنا الالباني فقد جمع فيها طرقها ورواياتها .

(*) رواه البخاري مسلم .

(٢) رواه ابو داود (٦٥٢) عن شداد بن أوس ، وإسناده صحيح ، ولفظه : « خالفوا اليهود ، فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم » . وصححه الالباني في (صحيح الجامع – ٣٢٠٥) و (تخريج المشكاة – ٧٦٥)

ولهذا الأصل أدلة وشواهد لا تحصى كثرة[1]، والمراد هنا التنبيه إلى أن الأمة الاسلامية يجب أن تكون أمة مستقلة في كل شيء : المنهج والعبادة ، والسلوك والآداب والعبادات ، وحتى اللباس والمظاهر والعادات .

١٨ – وأرجو أن أكون بهذه المقدمة قد أوضحت جانباً من هذه القضية : قضية الالتزام بالكتاب والسنة عقيدة وعبادة ، وسلوكاً وآداباً بالمشروع فقط

الصحابة رضوان الله عليهم والأصلان السابقان :

١٩ – فهم الصحابة رضوان الله عليهم هذا الأصل الأصيل لأنه مقتضى قولهم « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فاتبعوا هذا الأصل ، وكانوا حراساً له ، لما شاهدوا انحرافاً ولو يسيراً إلا شددوا نكيرهم على فاعليه ، وبتروه من أصله . ومن أكبر الأدلة على ذلك أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه دخل المسجد في الكوفة فرأى حلقاً ، وفي وسط كل حلقة كوماً من الحصى ، ورجل قائم على كل حلقة يقول لهم : سبحوا مئة فيسبحون مئة احمدوا مئة فيحمدون مئة . كبروا مئة ، فيكبرون مئة فقال لهم بن مسعود رضي الله عنه : ياقوم ! والله لأنتم على ملة هي أهدى من ملة رسول الله أو مفتحمو باب ضلالة[2]، وهذه قضية منطقية سليمة ، فهؤلاء إما أن يكونوا أهدى من

---

(١) من أجمع الكتب المؤلفة في ذلك كتاب « اقتضاء الصراط المستقيم » لشيخ الإسلام ابن تيمية والفصل الخاص بحرمة التشبه بالكفار من « حجاب المرأة المسلمة » للألباني .

(٢) رواه الدارمي (٦٨/١) بتمامه مع بعض اختلاف ، وإسناده جيد ، وصححه استاذنا الالباني في رسالة (الرد على التعقب الحثيث ص ٤٥) .

الرسول ﷺ ، لأنهم قد وفقوا لعمل لم يصل إليه علم رسول الله ﷺ ، وإما أن يكونوا في ضلالة ، والفرض الأول منتف حتماً ، لأنه لا أحد أفضل من رسول الله ﷺ ، فلم يبق إلا الفرض الآخر ، وهو أنهم قد افتتحوا باب ضلالة ، فقالوا : والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخير ، وهذا دليل منهم على صلاح نياتهم ، وإرادتهم وجه الله تبارك وتعالى بهذا العمل المبتدع. ولكن عبدالله بن مسعود قال لهم : « وكم من مريد للخير لم يبلغه » !! وهذا معناه أن النية وحدها لا تكفي لتصحيح الفعل ، بل لا بد أن ينضاف الى ذلك التقيد بالمشروع .

٢٠ - وبالغ الصحابة رضوان الله عليهم في حماية جناب الدين وجانبه أن يدخل فيه الغريب ، وما ليس منه حتى يصفو للناس التأدب بالأدب الخاص ، والتخلق بالخلق الكامل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فطرد علي بن أبي طالب رضي الله عنه القصاصين من المساجد ، وهم الوعاظ الذين يعظون الناس ، ويزعمون ترقيق قلوبهم بالقصص الخيالي ، والحكايات والأساطير ، وأنكر ابن عمر على رجل عطس ، فقال : الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله قائلا له : ما هكذا علمنا رسول الله ﷺ بل قال : إذا عطس أحدكم فليحمد الله ، ولم يقل : وليصل على رسول الله[1] !!

الحقائق ... والموازين :

---

(١) رواه بنحوه الترمذي (٨/٩ تحفة) وفيه ضعف ، ورواه أيضاً الطبراني والبزار فينظر إسناده فيهما ، فلعله يقوى به .

وبمجموع هذه الأدلة يتضح لنا الحقائق التالية لفهم قضية الكتاب والسنة :

أولا – الهدى هو ما كان من الله سبحانه وتعالى ورسوله ﷺ فقط (قل إن الهدى هدى الله) (فماذا بعد الحق إلا الضلال)

وإن هذا الهدى محصور في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقط ، وليس وراء هذا طريق ثالث يقرب إلى الله ، ويباعد من النار

ثانياً – ان كل عقيدة تخالف كتاب الله وسنة رسوله فهي عقيدة باطلة ، يجب حربها والقضاء عليها .

ثالثاً – إن كل زيادة أو نقص في تشريع العبادات والسلوك يراد به التقرب الى الله تبارك وتعالى ، وإصلاح النفس إنما هو بدعة مرفوضة ، حتى لو كان صدر هذا ممن ينتسبون الى الاسلام ويدعون اليه .

رابعاً – إن كل من ادعى علماً غيبياً في كتاب الله وسنة رسوله ، زاعماً أنه قد وصله بطريق الجن أو الفيض أو الفتح ، أو الاتصال بالسماء فإنما هو كاذب مارق

خامساً – إن أقوال العلماء في أمور الدين لا تؤخذ قضية مسلمة قط ، بل لا بد من عرضها على الكتاب والسنة ، فما وافق أخذ وما خالف ذلك رد ، وإذا جاز لنا أحياناً الأخذ بها والعمل بها إذا لم نعلم الدليل ، فإنما ذلك الى حين معرفتنا بالدليل ، ومتى عرفنا الدليل حكمنا به على القول .

سادساً – إن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا أعبد الناس ، وأتقى الناس ، وأنهم تحققوا بهذين الأصلين : الكتاب والسنة ، وأن من كان على مثل ما كانوا عليه فقد اهتدى ، ومن شذ يميناً أو يساراً فقد ضل .